ملامح النظام التربوي

في فلسفة ما بعد الحداثة

إعداد
عبد الرحمن بن محمد بن نفيز الحارثي

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم. أما بعد..

فقد كانت العلمية التربوية في عهد الإسلام الأول صافية نقية تتلقاها أفئد الصحابة رضي الله عنهم من النبي صلى الله عليه وسلم دون أدنى مؤثرات فلسفية أو دينية، بل عمل النبي صلى الله عليه وسلم على التخلية ثم التحلية حتى كانت المبادئ والقيم التربوية التي تشرَّبتها قلوب الصحابة رضي الله عنهم كفيلة بنشر الإسلام بصورته الكاملة في غضون سنوات قليلة مقارنة بالضياع الهائل الذي غرقت فيه البشرية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، حتى تمددت رقعة الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقاً إلى أقاصي المغرب العربي غرباً.

وما زالت العلمية التربوية تضعف كلما بعدت عن الحقبة الزمنية النبوية الكريمة، وذلك بتغير المفاهيم ودخول اللغات وانتشار الترجمة في الدول التي ما زالت تعقب دولة الخلافة الراشدة.

مما زاد من دخول الأفكار والفلسفات التي لم تكن موجودة في الأوساط العربية من قبل وذلك عبر الترجمة الهائلة للكتب الأوربية حينها، وهذا وغيره ساهم بشكل كبير في اختلاط المفاهيم عند بعض من كان بعيداً عن الفهم العميق لدين الإسلام، مما جعل الفرق تتسلل إلى العالم الإسلامي بأفكارها ومبادئها التي تناقض الإسلام حيناً وتساهم في التشويش على صفائه حيناً آخر.

وكانت مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة هي أحد المراحل التي تأثرت بها المبادئ الإسلامية وساهمت في تشويه القيم الإسلامية الصافية، ادعاءاً من أصحابها أنهم سيساهمون في تحديث المبادئ والقيم الإسلامية بما يتوافق مع عصر الحضارة والتطور المادي الذي طغى اليوم على بلاد العالم الإسلامي بلا ضوابط تحد من هيمنته على مشاعر المسلمين اليوم.

ولعل الباحث في هذا المبحث يحاول جاهداً أن يبين متى نشأ تيار ما بعد الحداثة وما أبرز العوامل التي أدت إلى ظهور في عالمنا العربي، كما سيتحدث عن المفهوم وأهم المرتكزات والخصائص التي يختص بها تيار ما بعد الحداثة، وسيعرض أيضاً لملامح فلسفة ما بعد الحداثة وموقفها من الوجود والمعرفة، وسيتطرق إلى ملامح النظام التربوي في فلسفة ما بعد الحداثة من ناحية الأهداف والقيم والعملية التعليمية.

وسيبقى هذا البحث محاولة من الباحث في أن يساهم في توضيح ملامح النظام التربوي بصورة عامة في العالم العربي.

سائلاً الله التوفيق والسداد.

المبحث الأول: نشأة تيار ما بعد الحداثة والعوامل التي أدت إلى ظهوره:

يرى البعض أن الحداثة بدأت مع التحولات الهامة التي شهدها المجتمع في القرن العشرين مع ظهور الأمبريالية واندلاع الحربين العالميتين وقيام الثورة الروسية، إنَّ الحداثة ممارسة أرادت أن تناقض الأساس التي قامت عليها الثقافة الغربية في الماضي والتي كانت قائمة على العقل.

لقد ابتدأت الحداثة في أوربا منذ اللحظة التي تفككت فيها الثقافة الدينية وظهرت الثقافة اللادينية. ولئن كان هذا فيما يخص الحداثة، فإنه ولا شك سيكون ليتار "ما بعد الحداثة" حالة من الزمن كانت سبباً في ظهوره في العالم، وذلك ما سيتضح من خلال المطلب التالي:

المطلب الأول: نشأة تيار ما بعد الحداثة:

نشأ تيار ما بعد الحداثة "بشكل واضح في السبعينيات من القرن العشرين الميلادي، في كتاب الفيلسوف الفرنسي ليوتارد، (علم ما بعد الحداثة) وعنى بها التعددية الثقافية وتعدد أنماط الحياة.[١]

و"تمتد فترة ما بعد الحداثة من سنة ١٩٧٠م إلى سنة ١٩٩٠م، ويقصد بها النظريات والتيارات والمدارس الفلسفية والفكرية والأدبية والنقدية والفنية التي ظهرت ما بعد الحداثة البنيوية والسيميائية واللسانية، وقد جاءت ما بعد الحداثة لتقويض الميتافيزيقا الغربية، وتحطيم المقولات المركزية التي هيمنت قديماً وحديثاً على الفكر الغربي، كاللغة، والهوية، والأصل، والصوت، والعقل... وقد استخدمت في ذلك آليات التشتيت والتشكيك والاختلاف والتغريب، وتقترن ما بعد الحداثة بفلسفة الفوضى والعدمية والتفكيك واللامعنى واللانظام".[٢]

---

(١) إشكالية المنهج في العلوم الاجتماعية العربية المعاصرة. عبيد الله العمري، و عبد القادر العرابي، ص٩٩.

(٢) نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، جميل حمداوي، ص١٦.

ويعتبر تيار الحداثة كمفهوم من التي "شاعت وسادت منذ الخمسينات الميلادية، ولم يهتد أحد بعد إلى مصدره: فهناك من يعيد المفردة إلى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي عام ١٩٥٤م، وهناك من يربطها بالشاعر والناقد الأمريكي تشارلس أولسون في الخمسينات الميلادية، وهناك من يحيلها إلى ناقد الثقافة ليزلي فيدلر، ويحدد زمانها بعام ١٩٦٥م".[٣]

السياق الذي نشأت فيه "ما بعد الحداثة":

لعل الحديث عن السياق الذي نشأ تيار "ما بعد الحداثة" يشكل لنا الصورة الأكبر في نشأتها، حيث ارتبط نشوؤها بتطور الرأسمالية الغربية ما بعد الحداثية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً. كما ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بتطور وسائل الإعلام. كما جاءت ما بعد الحداثة كرد فعل على البنيوية اللسانية، والمقولات المركزية الغربية التي تحيل على الهيمنة والسيطرة والاستغلال والاستلاب... هذا وقد ظهرت "ما بد الحداثة" في ظروف سياسية معقدة، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وخاصة في سياق الحرب الباردة وانتشار التسلح النووي، وإعلان ميلاد حقوق الإنسان وظهور مسرح اللامعقول (صمويل بيكيت، وأداموف، ويونيسكو، وأرابال...)، وظهور الفلسفات اللاعقلانية كالسريالية والوجودية، والفرويدية، والعبثية، والعدمية...وقد كانت التفكيكية معبراً رئيساً للانتقال من مرحلة الحداثة إلى "ما بعد الحداثة".[٤]

و"مع انتهاء عقد الثمانينات تتزايد صعوبة التحديد الدقيق للمعنى وراء مصطلح ما بعد الحداثة، لأنه يتشعب عبر مناقشات مختلفة، ويتجاوز الحدود ما بين فروع المعرفة المختلفة، وتسعى أطراف

(٣) المصدر السابق، ص١٧.

(٤) المصدر السابق، ص١٩.

مختلفة للاستشهاد بهذا المصطلح، واستخدامه للتعبير عن خضم من الأشياء والتوجهات والطوارئ المتنافرة."[٥]

المطلب الثاني: العوامل التي أدت إلى ظهور تيار ما بعد الحداثة:

كان الواقع الذي اصطدمت في الحضارة الغربية بعد الثورة الفرنسية أحد أهم العوامل التي كانت سبباً في نشوء تيار ما بعد الحداثة، وذلك بعد "طرح الحاجة للتصدي للحس بالفوضوية وعدم النظام واليأس الذي بذره نيشتة في زمن حفل بالحراك الصارخ والتوتر وفقدان الاستقرار في الحياة السياسية والاقتصادية، وهو اضطراب تشبثت به وأسهمت فيه الحركة الفوضوية التي سادت في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وتلازم مع ذلك إعلاء الرغبات الجنسية والنفسانية واللاعقلانية (من النوع الذي حدده فرويد ثم تابعه كليمت في تداعياته الفنية الحرة) التي أضافت بعداً آخر إلى الفوضى القائمة".[٦]

ولعل الباحث يحاول أن يسرد بعض العوامل التي ساهمت في نشأة فكر "ما بعد الحداثة":

- **الأنا:** حينما ظهرت المشكلة الفلسفية الكبرى "العقلانية" التي ارتكزت عليها حركة التنوير والتي حلت محل الدين والكنيسة والتي مثلت النسق الأقوى الذي استطاع أن يزيح الأنساق السابقة، أصبحت فيما بعد محط اتهام بعض المفكرين الماديين فراحوا يتهمون هذا النسق بعدم الاتساق إذ كان مع الحداثة أن حلت الأنا محل الإله، تلك الأنا التي تملك العقل الخارج عن الصيرورة والقادر على التفكير وربط الأمور وتصنيفها، ولكن مع الفكر الجديد الذي اتهم حتى العقل فلماذا تُنسب للعقل المقدرة على تجاوز الأجزاء وإدراك الكليات والإفلات من

(٥) ما بعد الحداثة، ما رجريت روز، ترجمة أحمد الشامي، ص١٣.

(٦) حالة ما بعد الحداثة الفلسفة والفن، بدر الدين مصطفي، ص٢١-٢٢.

قبضة الصيرورة، وهنا تمثل الانتقال من الصلابة التي نفخ العقل فيها صلابتها إلى السيولة بعد أن أصبح كل شيء في قبضة الصيرورة.[٧]

- **ردة الفعل**: "إن ردة الفعل المعادي للحداثة الأكثر عمقاً هو الذي يقاوم بكل شدة إرادية السلطات التحديثية، "ولعل المفارقة القارة التي تجعلها عاجزة هي معاداتها للثنائية الضدية، إذ أن التضاد أساس المعرفة وأساس التحيز، وبدون التضاد لا يمكن معرفة ما إذا كان توجه ما أفضل من غيره، ولذلك فإن دفاع "ما بعد الحداثة" جعلها تتقمص خصائصه، إذ انقلب على أهميتها، فأصبحت هامشية لا تغير من الواقع شيئاً".[٨]
- **الهروب من العبودية مرة أخرى**: احتفلت ما بعد الحداثة بأنموذج التشظي والتشتيت واللاتقريرية كمقابل لشموليات الحداثة وثوابتها، وزعزعت الثقة بالأنموذج الكوني، وبالخطية التقدمية، وبعلاقة النتيجة بأسبابها، حاربت العقل والعقلانية، ودعت إلى خلق أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها التي ترفض النماذج المتعالية، وتضع محلها الضرورات الروحية، وضرورة قبول التغيير المستمر، وتبجيل اللحظة الحاضرة المعاشة، كما رفضت الفصل بين الحياة والفن، وحتى أدب "ما بعد الحداثة" ونظرياتها تأبى التأويل، وتحارب المعاني الثابتة".[٩] فأصبحت "ما بعد الحداثة" بهذه الطريقة تحاول الهروب من الواقع التسلطي والمنظم الذي يسير الناس وفق القوانين المرسومة التي تمايز بين حياتهم وحياة غيرهم من الأمم بعد أن كانت الكنيسة متسلطة على البشرية في ذلك العهد، وتشبهها بذلك الواقع التعيس، ويتسائلون ما الفرق بين الحداثة والكنيسة في العبودية؟!

---

(٧) الحداثة وما بعد الحداثة، عبدالوهاب المسيري، وفتحي التريكي، ص٤٦ وما بعدها بتصرف.

(٨) نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص٢٩.

(٩) دليل الناقد الأدبي، سعد البازعي وميجان الرويلي، ص١٤٢.

- **الاعتراف بالكل**: لما كانت الحداثة نتيجة إفراز للظلم الواقع من الكنيسة وحصلت ردة الفعل تجاهها وحاربت الأديان فإن "ما بعد الحداثة"، يرى صحة جميع الأديان. لا من حيث أنه يعترف بالوحي أو بوجود الإله، بل من حيث أنها جميعا بنى ثقافية، ولا أحد يملك أن يحكم عليها بأنها خطأ. فكل أصحاب دين يعتبر دينهم حق بالنسبة لهم. لذلك لا تحارب ما بعد الحداثة الأديان بل تشجعها وتدعوا للتعايش بين الأديان جميعها دون استثناء، وترى أنها سواسية، إذ أنها ترى أنه ليس لدى أحد معيار مطلق يمكن أن يقاس به الدين الحق من الباطل.

المبحث الثاني: مفاهيم وخصائص ما بعد الحداثة:

لا شك أنه ما بعد الحداثة له مفاهيم وأطر يتجه نحوها كونه جاء مخالف للحداثة نفسها، وما تقوله الأدبيات التي تحدث عن ما بعد الحداثة هو أن هذا الفكر يسعى للخروج من الصندوق الذي نادت به الحداثة ثم وقعت فيه دون أن تشعر، وذلك بصور وأساليب صاغتها العقول التي تحب أن تعيد الناس للعبودية سواءً كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

وجاءت النزعة لـ ما بعد الحداثة في الطرف المقابل وأحدث لها من الخصائص ما يمكن أن يتضح بصورة أكبر خلال مطلب مفهوم الحداثة وما بعد الحداثة ومطلب المرتكزات والخصائص لما بعد الحداثة.

المطلب الأول: مفهوم الحداثة وما بعد الحداثة:

مفهوم الحداثة لغة:

يتحدد مفهوم الحداثة من قول: حدث الشيء يحدث حدثاً وحداثة وأحدثه فهو محدث وحديث. وكذلك استحدثه.. فالحديث هو إيجاد شيء لم يكن وابتدعه. والحديث والحدوث نقيض القديم والقدْمة، وكون الشيء لم يكن. وما ابتدع، والمحدث هو الأمر المبتدع، واستحدثتُ خبراً أي وجدت خبراً جديداً، والحديث الجديد من الاشياء. والحدث هو الشباب أو الأمر المنكر الذي ليس معتاداً ولا معروفاً، العالم محدث أي له صانع وليس بأزلي، فالحداثة هي الجدة، وأول الأمر وابتداؤه(١٠).

و"الحداثة جدة في الابداع، وتحرر من إسار المحاكاة والتقليد، وذلك بإنجاز عمل لم يؤت بمثله من قبل، ولم يسبق اليه مبدعه على صعيد الشكل والمضمون، وفي الحداثة الشعرية تعبير عن روح العصر بأبعاده، وأحداثه وقضاياه، تعبيراً حضارياً، مما يعكس تغلغل الشاعر في عصره، وارتباطه بالحياة من حوله ارتباطاً عضوياً وجوهرياً".(١١)

---

(١٠) كتاب العين، مادة حدث: ص٣٥٤، ولسان العرب، مادة حدث: ٢ص١٣٠-١٣٤، والمعجم الوسيط: ١ص١٦٠.

(١١) التأصيل والحداثة في الشعر العربي، محمود شلبي، ص٧٧.

مفهوم الحداثة اصطلاحاً:

"في رأي علماء التربية أن مفهوم الحداثة يتطور بتطور مجريات الأحداث في الزمن المعاصر فما كان حديثاً اليوم لن يكون حديثاً في الغد، وهذا ما يجعل الباحث يتأمل مراحل تحول المصطلح حتى يصل إلى تعريف يتوافق مع الهدف من البحث.

"لقد مرَّ هذا المصطلح بمراحل من التغيّر السريع، ربما أسرع من الرومانسية أو الكلاسيكية الحديثة. من الناحية التاريخية نستخدم هذا المصطلح لتحديد فترة انتهت ونستعمله كذلك لإيجاد نشاط الإنسان في ظروف معينة وما يتمخض عنه من وجهات نظر إنه "ذلك النمط من وعي الإنسان المعاصر في أهمية اللحاق بحركة الزمن، هذا الوعي الذي غالباً ما ينتهي باليأس حين تزايد سرعة هذه الحركة" ورغم ذلك تبقى الحداثة ذات تأثير بمشاعرنا التي تجعلنا نتصور أننا نعيش في زمن حديث. إنَّ الحداثة ليست أكبر من كونها محض حادثة جمالية طارئة جاءت نتيجة لأسباب يمكن تمييزها بوضوح، إنها مشكلة حضارية وجمالية في آن واحد.[١٢]

وفي تعريف آخر أن الحداثة "تمثل الحالة التي يصل إليها المجتمع الناتجة عن الحركة الإيجابية له، وعن نموه أو تقدمه وتطوره، أو الانتقال بالمجتمع ككل من حالة تقليدية سابقة، إلى حالة جديدة، أكثر تعقيداً أو نضجاً من ناحية النمو، وأكثر رفاهية وقوة من ناحية التقدم أو التطور".[١٣]

والملاحظ مما سبق يتبين له أن التعريفات فيها من العمومية ما لا يمكن أن يتحقق فيها معنى الحدية في التعريف، خاصة حينما ترمي كل الفلسفات خلف ظهرها متبرئة منها، وهو ما لا يمكن التسليم به، إذ أن الحداثة في أصلها ناشئة من المصطلح الأجنبي الذي هو الأساس، لأن مصطلح الحداثة مصطلح غربيّ[١٤] ففي اللغتين الانجليزية والفرنسية انتشرت لفظتان هما Modernism وModernity واختلفت الترجمة العربية بين الحداثة، والعصرية، والمعاصرة. أما في المعاجم فيكاد

(١٢) الحداثة، مالكم برادبري، جميس ماكفارلن، ترجمة: مؤيد حسن فوزي، ص٢٩ .

(١٣) مجلة العلوم التربوية، ٢٠١٠، مجلد ٣٧، عدد٢ ورقة صفا الغزالي، ص٤٣٢.

(١٤) أفق الحداثة وحداثة النمط، ص١٥١.

يكون الفرق ضيقاً في الترجمة. ففي المعجم نجد ترجمة كلمة Modernism بتعبير أو استعمال عصري، العصرانية، وModyernity بالعصرية أو كون الشيء عصرياً. إلا أن المعجم يضيف إلى معنى كلمة Modernism أنها حركة الفكر الكاثوليكي لتأويل تعاليم الكنيسة في ضوء المفاهيم العلمية والفلسفية السائدة في القرن التاسع عشر.(١٥)

وهنا يتبين أثر الطغيان الكنسي قبل الثورة الفرنسية ومن ثم ردة الفعل بد الثورة في رسم معالم هذا المصطلح ومن ثم تطوره من عصر إلى عصر حتى وصل إلى أن يكون " اتجاه فكري، يضم خليطا من التيارات، يجمعها رفض الأسس الأنتولوجية (أي الخاصة بطبيعة الوجود) والمعرفية والمنهجية التي قامت عليها الحداثة أو على الأقل يجعلها محل شك".(١٦)

مفهوم ما بعد الحداثة:

لأن مفهوم ما بعد الحداثة نشأ كردة فعل للحداثة فأن أصحاب هذا التيار يسعون جاهدين إلى أن يكون بلا مفهوم دقيق يتصف به مفهوم التعريف الذي يلزم منه أن يكون ذا حد ولا يفهم منه غيره.

فما يزالون يدندنون حول التهرب من وضع المصطلح في إطار واضح مفهوم، وكانوا لأجل ذلك سبباً في التحول من كل شيء إلى كل شيء، حتى انتقلوا إلى مراحل فلسفية وصلت بهم إلى الشك في كل شيء.

إن "ما بعد الحداثة مفهوم لتيار نشأ كردة فعل لـ"الحداثة" ويصعب إيجاد تعريف دقيق لهذا المصطلح، وتكاد تجمع المراجع على عدم إعطاء تعريف لـ "ما بعد الحداثة" لصعوبة تعريفها، وبدلاً من ذلك تقوم بتوصيف هذا المذهب وذلك بمقارنته بنقيضه الحداثة. والسبب في ذلك أن ما بعد

(١٥) منير البعلبكي، قاموس المورد، ص٥٨٦.

(١٦) أثر ما بعد الحداثة في التعليم، راشد العبدالكريم، ص٣.

الحداثة مفهوم فضاض وغامض، فهناك صور متعددة من ما بعد الحداثة؛ فهي تتدرج من الموقف الرافض للغلو العقلاني الوضعي ورفض الاضطهاد الذي تمارسه الثقافة الغربية بآيدلوجيتها العلمية إلى أن تصل إلى ما بعد الحداثة الثورية العدمية العبثية التي تدعو للثورة على العقل والعقلانية من أساسهما وتصل إلى التشكيك حتى في البدهيات. مما حدا بأنصارها إلى الكف عن توضيح ما هي "ما بعد الحداثة" والانصراف بدلاً من ذلك إلى توضيح ما ترفضه ما بعد الحداثة".[١٧]

ولعل الباحث حتى يصل إلى معنى قريب لمفهوم "ما بعد الحداثة" يسعى جاهداً إلى تبيين أبرز ملامح ما بعد الحداثة حتى تكون الصورة قريبة للذهن أكثر وأكثر:

أولاً: لأن الحداثة في أصلها لم تجعل هناك أي اعتبار للدين والغيب كون الحداثة المادية كانت سبباً في الحرب على ذلك، فإن فلسفة ما بعد الحداثة تتجه إلى تهميش دور العقل ومركزية الإنسان والطبيعة، "وهي –أي فكرة ما بعد الحداثة – تفترض أن العالم مادة، في حالة حركة دائمة، ولا قصد لها ولا أصل، ومجرد استخدام كلمات مثل: حق ويقين وذات ودوافع مثالية هي سقوط في الميتافيزيقا الماورائية، فليس هناك نظام مركزي بل هي نظم صغيرة مغلقة يدور كل منها حول نفسه، ولها معناها الخاص الذي لا يرتبط بأي مدلولات أخرى".[١٨]

ثانياً: في فلسفة ما بعد الحداثة لا يوجد هناك أي مسلمات لهذا الفكر، بل هي حقائق متعدد، على الإنسان أن يصوغها بنفسه ويختار ما يقتنع به، وما يراه من مصلحته الشخصية البراجماتية وعليه أن يتكيف معه ويذعن له، حتى لو كان في غاية الشذوذ، ولعل المدخل لهذه العدمية هو الفلسفة التفكيكية للمعاني، "فتصبح المعاني بعدد القراء، وبالتالي إلى حالة من السيولة تختفي فيها الحقائق، وتتعدد فيها المعاني الفردية، وهذا ما جعل النصوص المقدسة في العهد القديم والجديد

([١٧]) المصدر السابق، ص٣.

([١٨]) القيم في مرحلة ما بعد الحداثة.. قيم العمل اليابانية انموذجاً، مسفر القحطاني، ص٥-٦.

فضلاً عن النظريات والقيم والمبادئ كلها صور هلامية يفهمها كل شخص على حسب مراده، وبالتالي سقوطها في فخاخ ما بعد البنيوية".[١٩]

ثالثاً: لا يوجد في نظام ما بعد الحداثة أي قيم مطلقة أو معايير ثابتة تتوافق مع ثقافات الشعوب وديانتها وتثق بمبادئها، بل الأخلاق تنطلق من مصالح الفرد أو الجماعة المهيمنة على المجتمع أياً كانت، فالأمانة والصدق قد يعمل بها كونها تحقق مصالح هذه الجماعة وليس كونها قيم متوارثة بين المجتمع، ولذلك أصبحت الشركات الكبرى عالمياً وبمؤازرة منظمة التجارة تعيد هيكلة الكثير من القيم في المجتمعات من خلال برامجها الهادفة والدقيقة التي تستهدف بها الشعوب وغالباً ما يكون لهذه الشركات توجهات أيدلوجية معينة أو تسعى هي لتوافق توجهات عالمية معينة لتحمي مصالحها وتكسب رضى تلك التوجهات، وهي بذلك تساهم في إعادة تشكيل القيم في المجتمعات دون أن تعي الشعوب ذلك.

رابعاً: تؤكد فكرة ما بعد الحداثة على سياسية تحويل الشعوب إلى أدوات استهلاكية وتصوغ الدول الكبرى التي كانت تقف خلف مشروعات استعمارية برامج استعمارية ناعمة وذلك بالتركيز على ضرب القيم الدينية أو الخصوصيات القومية، وذلك بفتح الحدود للشركات العابرة والمنتجات الاستهلاكية، "فالهوية الدينية والثقافية والخصوصيات القومية لا مكان لها في السوق العالمية الحالية، وإغواء المجتمعات يسير بشكل قوي ومنحدر نحو التخدير الإعلامي والإعلاني للوقوع في قبضة سكرة الاستهلاك والمديونيات الطويلة".[٢٠]

وبعد هذه الملامح يستطيع الباحث أن يصل إلى صورة تقريبية لمفهوم ما بعد الحداثة، وهو التحرر من القيود واحتلال الشعوب بتحقيق مصالح فرد أو مجموعات مؤدلجة عبر سن القوانين وتسيير

---

(١٩) المصدر السابق. ص٦.

(٢٠) المصدر السابق، ص٧.

الآلة الإعلامية الكبرى في تحقيق القيم والحقائق التي تحقق لهم مبتغاهم حتى لو كانت تصطدم بقيم وثقافات الشعوب ودينها.

المطلب الثاني: مرتكزات وخصائص ما بعد الحداثة:

لا يمكن أن يكون هناك فكر إلا وله من المرتكزات والخصائص ما يميزه عما يشابهه إن كان له مشابه أو يفرق بينه وبين غيره بما يحقق له ميزة عن غيره، وفكر "ما بعد الحداثة" له من المرتكزات والخصائص والمكونات الفكرية والذهنية والفنية والجمالية والأدبية والنقدية، ما يمكن ذكرها في النقاط التالية:

- **"التقويض**: تهدف نظرية "ما بعد الحداثة" إلى تقويض الفكر الغربي، وتحطيم أقانيمه المركزية، وذلك عن طريق التشتيت والتأجيل والتفكيك. بمعنى أن "ما بعد الحداثة" قد تسلحت بمعاول الهدم والتشريح لتعرية الخطابات الرسمية، وفضح الإيديولوجيات السائدة المتآكلة، وذلك باستعمال لغة الاختلاف والتضاد والتناقض.
- **التشكيك**: أهم ما تتميز به "ما بعد الحداثة" هو التشكيك في المعارف اليقينية، وانتقاد المؤسسات الثقافية المالكة للخطاب والقوة والمعرفة والسلطة. ومن ثم أصبح التشكيك آلية للطعن في الفلسفة الغربية المبنية على العقل والحضور والدال الصوتي. ومن هنا فتكيكية جاد ديريدا هي في الحقيقية تشكيك في الميتافيزيقا الفربية من أفلاطون إلى فترة الفلسفة الحديثة.
- **الفلسفة العدمية**: من يتأمل جوهر فلسفات ما بعد الحداثة، فإنه سيجدها فلسفات عدمية وفوضوية، تقوم على تغييب المعنى، وتقويض العقل والمنطق والنظام والانسجام. بمعنى أن فلسفات ما بعد الحداثة هي فلسفات لا تقدم بدائل عملية

واقعية وبراجماتية، بل هي فلسفات عبثية لامعقولة، تنشر اليأس والشكوى والفوضى في المجتمع.

- **التفكيك واللاانسجام**: إذا كانت فلسفة الحداثة أو تيارات البنيوية والسيميائية تبحث عن النظام والانسجام، وتهدف إلى توحيد النصوص والخطابات، وتجميعها في بنيات كونية، وتجريدها في قواعد صورية عامة، من أجل الانسجام والتشاكل، وتحقيق الكلية والعضوية الكونية، فإن فلسفات ما بعد الحداثة هي ضد النظام والانسجام، بل هي تعارض فكرية الكلية وفي المقابل، تدعو إلى التعددية والاختلاف واللانظام، وتفكيك ما هو منظم ومتعارف عليه.
- **هيمنة الصورة**: رافقت "ما بعد الحداث" تطور وسائل الإسلاعم، فأصبحت الصورة البصرية علامة سيميائية تشهد على تطور ما بعد الحداثة، ولم تعد اللغة هي المنظم الوحيد للحياة الإنسانية، بل أصحبت الصورة هي المحرك الأساس للتحصيل المعرفي، وترف الحقيقية. ولا غرو أن نجد جيل دولوز يهتم بالصورة السينمائية، إذ يقسمها إلى الصورة –الإدراك، والصورة – الانفعال، والصورة – الفعل، ويعتبر العالم خداعاً، كخداع السنما للزمان والمكان عن طريق خداع الحواس، وذلك في كتابية: الصورة- الحركة(١٩٨٣م) والصورة- الزمان (١٩٨٥م).
- **الغرابة والغموض**: تتميز ما بعد الحداثة بالغرابة، والشذوذ، وغموض الآراء والإكار والمواقف، فتكيكية جاك ديردا – مثلاً – ما زالت مبهمة وغامضة، من الصعب فهمها واستيعابها، حتى إن مصطلح التفكيك نفسه أثار كثيراً من النقاش والتأويلات المختلفة في حقول ثقافية متنوعة، وخاصة في اليابان والولايات المتحدة الأمريكية. كما أن فلسفة جيل دولوز معقدة وغامضة، من العصب بمكان تمثلها بكل سهولة.

- **التناص**: يعني التناص استلهام نصوص الآخرين بطريقة واعية أو غير واعية، بمعنى أن أي نص يتفاعل ويتداخل نصياً مع النصوص الأخرى امتصاصاً وتقليداً وحواراً. ويدل على التناص في معانيه القريبة والبعيدة على التعددية، والتنوع، والمعرفة الخلفية، وترسبات الذاكرة. وقد ارتبط التناص نظرياً مع النقد الحواري لدى ميخائيل باختين.
- **تفكيك المقولات المركزية الكبرى**: استهدفت ما بعد الحداثة تقويض المقولات المركزية الغربية الكبرى كالدال والمدلول، واللسان والكلام، والحضور والغياب، إلى جانب انتقاد مفاهيم أخرى كالجوهر، والحقيقة، والعقل، والوجود، والهوية... وذلك عن طريق التشريح، والتفكيك، والتقويض، والشتيت، والتأجيل...
- **الانفتاح**: إذا كانت البنيوية الحداثية قد آمنت بفلسفة البنية والانغلاق الداخلي، وعد الانفتاح على المعنى، والسياق الخارجي والمرجعي؛ فإن ما بعد الحداثة قد اتخذت لنفسها الانفتاح وسيلة للتفاعل والتفاهم والتعايش والتسامح. ويعد التناص آلية لهذا الانفتاح، كما أن الاهتمام بالسياق الخارجي هو دليل آخر على هذا الانفتاح الإيجابي التعددي.
- **قوة التحرر**: تعمل فلسفات (ما بعد الحداثة) على تحرير الإنسان من قهر المؤسسات المالكة للخطاب والمعرفة والسلطة، وتحريره أيضا من أوهام الإيديولوجيا والميثولوجيا البيضاء، وتحريره كذلك من فلسفة المركز، وتنويره بفلسفات الهامش والعرضي واليومي والشعبي.
- **إعادة الاعتبار للسياق والنص الموازي**: إذا كانت البنيوية والسيميائيات قد أقصت من حسابها السياق الخارجي والمرجعي، وقتلت الإنسان والتاريخ والمجتمع، فإن فلسفات (مابعد الحداثة) قد أعادت الاعتبار للمؤلف والقارئ والإحالة والمرجع

التاريخي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي كما هو حال نظرية التأويل، وجمالية التلقي، والمادية الثقافية، والنقد الثقافي، ونظرية مابعد الاستعمار، والتاريخانية الجديدة...

- **تحطيم الحدود بين الأجناس الأدبية**: إذا كانت الشعرية البنيوية تحترم الأجناس الأدبية، حيث تضع كل جنس على حدة تصنيفا وتنويعا وتنميطا، فتحدد لها قواعدها وأدبيتها التجنيسية، فإن (مابعد الحداثة) لاتعترف بالحدود الأجناسية، فقد حطمت كل قواعد التجنيس الأدبي، وسخرت من نظرية الأدب. وقد أصبحنا نتحدث – اليوم- عن أعمال أو نصوص أو آثار غير محددة وغير معينة جنسيا.
- **الدلالات العائمة**: تتميز نصوص وخطابات (مابعد الحداثة) عن سابقتها الحداثية بخاصية الغموض والإبهام والالتباس. بمعنى أن دلالات تلك النصوص أو الخطابات غير محددة بدقة، وليس هناك مدلول واحد، بل هناك دلالات مختلفة ومتناقضة ومتضادة ومشتتة تأجيلا وتقويضا وتفكيكا، كما يبدو ذلك واضحا في المنظور التفكيكي عند جاك ديريدا. وبتعبير آخر، يغيب المعنى، ويتشتت عبثا في كتابات (مابعد الحداثة).
- **مافوق الحقيقة**: تنكر فلسفات مابعد الحداثة وجود حقيقة يقينية ثابتة، فجان بودريار – مثلا – ينكر الحقيقة، ويعتبرها وهما وخداعا، كما ذهب إلى ذلك نيتشه (**Neitsze**)الذي ربط غياب الحقيقة بأخطاء اللغة وأوهامها. بينما يربط بودريار الحقيقة بالإعلام الذي يمارس لغة الخداع والتضليل والتوهيم والتفخيم.

- **التخلص من المعايير والقواعد:** مايعرف عن نظريات (مابعد الحداثة) في مجال النقد والأدب تخلصها من النظريات والقواعد المنهجية، فميشيل فوكو يسخر من الذي ينطلق من منهجيات محددة يكررها دائما، ويحفظها عن ظهر قلب، فيرى النص أو الخطاب متعدد الدلالات، يحتمل قراءات مختلفة ومتنوعة. كما يرفض ديريدا أن تكون له منهجية نقدية أدبية في شكل وصفة سحرية ناجحة لتحليل النص الأدبي؛حيث لا يوجد المعنى أصلا مادام مقوضا ومفككا ومشتتا، فما هناك سوى المختلف من المعاني المتناقضة مع نفسها كما يقول جاك ديريدا"[٢١].

ولئن كانت هذه أبرز المرتكزات التي تقوم عليها فلسفة ما بعد الحداثة فإنه ولا شك لها خصائص تميزها عن الحداثة ذاتها، بل تخالفها في أغلب الأحيان، ذلك أنها جاءت كردة فعل لها، وأحدثت إنقلابات في بعض الأفكار الفلسفية، فكما حصل من المفكر والفيلسوف نيتشه بعد انقلابه على الفكرة الميتافيزيقية، فقد كان "هناك ثورة أخرى هي الثورة الفرويدية على المستوى السيكولوجي، ثورة جذرية قلبت مفاهيم الحداثة رأساً على عقب، فلم يتحدد الإنسان بوصفه وعياً وإرادة حرة، بقدر ما هو خزان لا شعوري، والذي يختصر رغبات جنسية وعدوانية تحرك وتنشط الحياة النفسية وتفوق سلطة العقل، فقيمة الإنسان لدى فرويد لا تنطلق من كينونته العاقلة الواعية والقاصدة والمتحكمة في زمام الأمور، ولكن بوصفه كائناً حيوياً تدفعه رغباته وحاجاته الغريزية والجسدية، فسلوكه مرتبط بدوائر اللاوعي أكثر من دواعي الوعي، أي اللاعقل أكثر من العقل".[٢٢]

ولعل الباحث يحاول ذكر بعض الخصائص لفكر ما بعد الحداثة في النقاط التالية:

([٢١]) نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مصدر سابق، ص٢٠-٢٢

([٢٢]) مأزق الحداثة- الخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة، رفيق عبدالسلام بوشلاكة، ص١١٣.

- **محدودية العلم**: يرى فكر "ما بعد الحداثة" أن الانطلاقة العظمى التي ساهمت في تطور العلوم الطبيعية في الحضارة الغربية بعد الثورة الفرنسية أصابت البشرية بالشقاء، وذلك لأن العلم لما وصل إلى مراحل متقدمة أدرك ما هية الإنسان وأنه مهما تطور وأعمل عقله فإنه يبقى جزء من هذا الكون الهائل وأعادت هذه النقلة في العلوم هذا الإنسان إلى ما يسمى بالمتيتافيزيقا والتي كان الغموض فيها – على رأيهم – أحد أسباب الثورة على الكنيسة، "ولذا ترى ما بعد الحداثة أن العلم محدود وأنه تسبب في شقاء البشرية وأن "العلمية" وظفت آيديولوجيا لسيطرة الثقافة الغربية على الثقافات الأخرى. وهذا قد يكون صحيحا لكن لا يعني هذا أن يبخس العلم حقه فالعلم شيء وسوء تطبيقه أو أدلجته شيء آخر. هذا بالإضافة إلى ما لطخ به العلم من أوضار السياسة وتوجيهات السلطة، فينفي هابرماس وجود حياد أو صفاء علمي، فالعلم في سياق العقلانية التقنية الحداثية تحايثه حسابات السياسة أي إرادة السلطة، بالمفهوم النيتشوي، وهو ما يتطلب نقد الوضعية والتيارات المعجبة بالعلم والنزعة التقنية، فهذه كلها تعبيرات متنوعة للآيديولوجيا المكونة للحداثة التقنية". (٢٣)

(٢٣) المناحي الجديدة للفكر الفلسفي، سالم يفوت. ص٩١.

- **فقد الثقة بكل شيء**: وذلك أنه لما كانت الحداثة تبشر بالعملية الضخمة لتحديث الواقع الذي ساء في كل أحواله قبل الثورة الفرنسية، خاصة في جوانب العلوم التطبيقية، رأي بعض المفكرين أن هذا مجرد انتقال لجهات السياسية أو بعض المنظمات من السطوة التي كانت تتمثل في الكنيسة إليهم، وأن وذلك باستخدام الكثير مما يسميه جارودي أوهام كثير "وهم رخاء الرأسمالية الذى لا حدود له، وهم الديموقراطية التي كان يتصورها الناس على أنها (جمهوريه الذوات الواعية) وتصوروا وجودها يسمو على صالح الأفراد والجماعات، ... وأوهام فلسفيه اخرى تقابل تلك الأوهام التاريخية: وهم المثالية الطيبة التي تصور العالم على انه عالم شفاف ينعم بوجود عقل خالق ومنظم له هذه النزعات التلفيقية ذات النغمة الطيبة في عالم وجدت جميع المشاكل فيه حلا لها من خلال التأليفات الروحية واجهت فجأة امتحانا قاسيا في قلب الحياة نفسها وبتأثير الأفكار التي انبعثت من هذه الحياة وشاهدنا في بحر سنوات معدودات ان الفلسفات التي كان قد كتبت لها السيادة الكاملة حتى ذلك الحين – على

الأقل في الجامعات – قد جرفها الطوفان وانقلبت الليبرالية العقلية إلى اتجاه عدمي فاشي وتحول المذهب التفاؤلي الى وجوديه مأساويه".[٢٤]

- **ليس هناك حقيقة مطلقة:** من خصائص ما بعد الحداثة أنها ترى أن الإنسان لا ينبغي له أن يثبت على حال في قناعاته وأفكاره، وليس لشعب أو قبيلة أو عادات أو حتى الدول أن تفرض لها قضايا تسميها حقائق ليلتزم بها الناس، بل تنظر ما بعد الحداثة أن للإنسان أن يتغير متى شاء في فكره ومبادئه وله أن لا يتعرف بأي مما يسميه البعض حقائق لأن الذي يراه اليوم حقيقة ربما لا يراه غداً كذلك، ففي النظرة ما بعد الحداثية ليس هناك ذاتا أو حقيقة للفرد يبقى ملتزما بها وصادقا لها، بل هوية الفرد دائمة التبدل والتشكل وتغير توجهها تبعا للتغير الدائم لعلاقاته".[٢٥]

- **التعددية:** ومن خصائص ما بعد الحداثة –وهو ينبي على ما قبله– مسألة قبول الأفكار المخالفة أو حتى التي تناقض ما يؤمن به بعض مفكري ما بعد الحداثة وذلك استناداً إلى أنه ما دام أن الحقائق نسبية فسيكون الحق مجزأ في كل الأفكار وعليه فنقبل من الجميع أفكارهم لأن كل فكر فيه شيء من الحق!

(٢٤) نظرات حول الإنسان، روجيه جارودي، ترجمة يحيى هويدي، ص١٧.

(٢٥) أثر ما بعد الحداثة في التعليم، مصدر سابق، ص٨.

"فما دام أنه ليس هناك حقيقة مطلقة، بل الكل حقائق نسبية، فلا بد من قبول التفسيرات المتغايرة، والمتناقضة أحيانا، للحقيقة. فالتعددية وتنوع التفسير والتصور أمر مقبول بل مرغب فيه في التوجه ما بعد الحداثي".[٢٦]

- **التشكيك**: وذلك لما كانت الحداثة تقوم على مبادئ أساسية والتي تمتاز بظهور ثقافة واسعة مسيطرة، ساهم الإعلام في نشرها بصورة سريعة، وترتبط بالرأسمالية، فإن ما بعد الحداثة يقوم على التشكيك في كل تلك المبادئ وتفكيكها، "فمجتمع ما بعد الحداثة يتجه نحو ما هو متخيل ومستقبلي، يقوم على معاني الاختلاف بدل الفهم المشترك، وينهمك في دحض النظريات والأنساق وإثبات عكسها بالتشكيك والتفكيك، وهكذا فنحن أمام فكر لا يؤمن بالذات ولا بالعقل ولا بالتاريخ ولا باليقين".[٢٧]

إن هذه الخصائص لما بعد الحداثة لست هي كل ما تختص به، بل هناك خصائص أخرى أعرض عنها الباحث خشية الإطالة في البحث.

(٢٦) أثر ما بعد الحداثة في التعليم، المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢٧) موقف طه عبدالرحمن من الحداثة، بوزبرة عبدالسلام، ص٤٨.

المبحث الثالث: ملامح فلسفة ما بعد الحداثة:

إن فلسفة ما بعد الحداثة فلسفة تفكيكية لكل ما هو داخل في معنى النظام أو المبادئ أو القيم التي تهم الشعوب، وحينما حصلت الثورة الفرنسية والهجمة التي كانت حينها على كل ما هو مقدس جاءت الحداثة بمعنى تحديث كل شيء وبصورة منظمة ولها معنى، ولم تستمر طويلاً إذ اكتشف بعض المفكرين أنها بدأت تنقلب من معنى الحرية المطلقة إلى العبودية بصيغة المؤسسات المجتمعية أو الدولة بأي صورة من صورها سواء كانت في إطار سياسي أو اقتصادي أو نحو ذلك. "ويلاحظ أن نظرية ما بعد الحداثة تقوض نفسها بنفسها؛ نظراً لطابعها الفوضوي والعدمي والعبثي. وفي هذا السياق يقول دافيد كارتر: "وقد اجتذبت ما بعد الحداثة نقداً إيجابياً وسلبياً على حد سواء؛ فيمكن أن ينظر إليها على أنها قوة محررة إيجابية تزعزع استقرار الإفكار المسبقة عن اللغة وعلاقتها بالعالم، وتقوض جميع لغات الذات التي تشير للتاريخ والمجتمع. ولكن تعد حقبة ما بعد الحداثة أيضاً أنها تقوض افتراضاتها الخاصة، وتحجب جميع التفسيرات المترابطة".[٢٨] ولذلك كان فكر ما بعد الحداثة يتميز بملامح هامة إزاء موقفها من الجزئيات التي شغلت الفلسفات التي سبقتها في محاورها الثلاثة وهي الوجود والمعرفة والقيم.

(٢٨) نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مصدر سابق، ص٢٩.

المطلب الأول: موقفها من الوجود:

إحدى أهم القضايا التي تقوم عليها " ما بعد لحداثة" بل وأول قضية أنه ليس هناك حقيقة مطلقة، بل صانعوا تلك الحقائق هم كتلة المجتمع المتكونة من مجموعة الأفراد. فليس هناك حقيقة يتفق الجميع على قرائتها بصورة واحدة، لذا يرى منظروا ما بعد الحداثة أن ما رافق الحداثة من تطور ما هو إلا مجرد خرافة، وما توصل إليه العقل من اختراع إنما هو وهم.

"فأفكارنا ليست انعكاسا للواقع بل قراءة له، وهي قراءة تتخذ صيغا أسطورية وإيديولوجية ودينية ونظرية، وكل منظومة معتقدية تعتقد أنها تمتلك الحقيقة وتميل إلى اعتبار كل ما يناقضها ويخالف حقيقتها أكذوبة أو خطأ. إن فكرة الحقيقة هي المنبع الأكبر للخطأ، والخطأ الأساسي يقوم في التملك الوحيد الجانب للحقيقة[٢٩]".

ولذلك كان من السمات الرئيسة لما بعد الحداثة التأكيد على أن زمن بناء التصورات العامة حول العالم أو السرديات الكبرى meta-narratives قد انتهى وأن عصر إنشاء النظريات الكلية وبناء الأنساق الجامعة قد تولى، خاصة بعد أن ظهر الطابع التسلطي الهيمني لهذه النظريات وتبدت "إرادة القوة" التي تسيرها.[٣٠]

وفلسفات ما بعد الحداثة التي تماثل وحدة الوجود هي الأخرى حين تلغي المسافة أو تختزلها بين الخالق والمخلوق وتختفي فيها علاقة الانفصال والاتصال بين الله وبين خلقه، وتنتهي إما إلى "تأليه" الإنسان أو "أنسنة" الله.. وهي في كل الأحوال تنتهي إلى ما يسميه المسيري[٣١] بالواحدية

(٢٩) المناحي الجديدة للفكر الفلسفي. مصدر سابق، ص١٠٢.

(٣٠) مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة. محمد الشيخ و ياسر الطائري، ص٨٧.

(٣١) الحداثة وما بعد الحداثة، عبدالوهاب المسيري، وفتحي التريكي، ص٨٤-٨٥.

التي هي ضد التوحيد، فهي شكل من أشكال المادية حيث لا يوجد إلا جوهر واحد فقط. المادية تعبر عن الروح!!

ومن هنا تبين أن قضية الوجود والصراع الذي دار بين الفلسفات التي زامنت تطور العلوم وأعقبت عصر الثورة الفرنسية إنما هو عند ما بعد الحداثة خرافة ووهم لا ينبغي الالتفات له، ذلك أن الإنسان لا ينبغي له –في نظرهم– أن يحاول في بناء النظريات الكلية التي ينطلق منها كمسلمات في العلوم، لأن ذلك عبارة عن عملية لتأطير العقل وقولبته، وإعادته للقبضة التي انفلتت منها ما بعد الحداثة مرة أخرى.

المطلب الثاني: موقفها من المعرفة:

القضية الأساسية الثانية التي تقوم عليها ما بعد الحداثة قضية أبستمولوجية (معرفية)، وهي ما يسميه علماء البحث العلمي التخلص من الحياد، أي أنه لا يمكن أن يكون هناك انفكاك بين الباحث والمبحوث، أو بين المشكلة والواقع الذي نشأت فيه؛ فالحقيقة إنما هي تصورنا أو إدراكنا للحقيقة في سياق ذاتي واجتماعي محدد.

لذلك يتساءل ما بعد الحداثيون عن كيفية الفصل بين الفاحص والمفحوص وأن هذا ما لا يمكن للعقل أن يستطيعه، إذ كيف له أن يوازن بين طبيعة الفاحص وحياته داخل البيئة التي ساهمت في صبغته بثقافة معينة وبين شخصيته المستقلة التي تكمن في داخله، كما يتساءلون كيف له أن يفرق بين مشاعره كباحث وما يمليه عليه عقله، تجاه مشاعر وعقل المفحوص، ويصلون بعد

ذلك إلى أنه لا يمكن الجزم بأمر معين أثناء عملية البحث لذا فمصير الباحث في النهاية إلى الشك!

و"هذا هو أحد الأسباب التي دعت ما بعد الحداثة إلى القول بأن الموضوعية التجريبية العلمية غير موجودة. فطرحوا موضوع الإدراك، كيف ندرك الواقع، وهل إحساسنا وإدراكنا يعكس الواقع الخارجي أم لا؟ ما بعد الحداثيين يزعمون أنه لا يعكس، ويستدلون بأن الناس يرون الشيء نفسه بطريقة مختلفة. ويرجعون هذا الاختلاف إلى الثقافة بمفهومها العام[٣٢].

المطلب الثالث: نقد فلسفة ما بعد الحداثة:

في ضوء ما تم عرضه من أفكار عن فكر وحركة ما بعد الحداثة وخاصة حينما تقارن بالحداثة نفسها فتجد أن الحداثة مهتمة بالنظام وما بعدها بالفوضى والحداثة تهتم بالتطور الفكري والضبط الاجتماعي بينما ما بعدها يهتم بالتفكيكية واللانظام.

وإن كان هذا النقد يتم في جانب المقارنة بينها وبين الحداثة، فإنه ولا شك سيكون هناك فارق أكبر حينما يتم في ضوء التربية الإسلامية التي رسم قيمها وثوابتها ومبادئها الوحي السماوي، الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٣٣] يتضح لنا الآتي:

٣٢. الثقافة في هذا السياق هي الثقافة بمفهومها العام الذي يعني مجموع الأفكار والمعتقدات والموروثات التي ترتبط بشعب معين.

(٣٣) سورة فصلت، ص٤٢.

إذا كان عصر ما بعد الحداثة هو عصر محو المحرمات والمقدسات، والمستفيدون يروجون لذلك بغية تجريد الناس من أي قيم يمكن أن تمنحهم الامتناع والرفض في وجه زيادة الأرباح وزيادة الاستهلاك والحراك المالي والاقتصادي عامة وحتى السياسي أيضاً. وإذا كان الإنسان لا يعادل ولا يزن شيئا بشكله وجسمه، وإنما هو في حقيقته وجدان وشعور، فإن جانب التضحية لا يمكن أن يكون ما لم يمتزج الوجدان والشعور بمبادئ وقيم وثوابت يشعر بها أن له قيمة، ولا يمكن ذلك إلا حين يقبل بدين أو ثقافة مجتمعية راسخة، وإن الذي يبيع دينه، ويعمل ضد عقيدته ورؤاه وقيمه، لا يصح أن يقال فيه: أنه حقق أي مكاسب أو نجاحات، يمكن أن يغبط عليها. لذلك ينبغي عليه أن يحدد القيم والثوابت ويبتعد عن المناطق الضبابية التي لا تتحدد فيها مبادئه، كما ورد من قوله –صلى الله عليه وسلم-: "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه".[٣٤]

إن "الصلابة الداخلية تعني كذلك أن يتخذ المسلم من مبادئه ملهمًا له ومحرِّكًا على مسرح الحياة وفي شأنه كله، كما يتخذ منها مرشدًا وموجهًا، فهو يُقْدِم ويبذل ويضحي في هدي تلك المبادئ، وهو كذلك يحجم ويتأبي ويقاوم في ضوئها وبحسب مدلولاتها، والحقيقة أنه لا يعادل صفاء العقيدة سوى صياغتها لسلوك صاحبها. إن المبادئ تظل هشة وغائمة واحتمالية ما لم

(٣٤) صحيح البخاري، برقم٥٢، وصحيح مسلم، برقم١٥٩٩.

تُدعَّم بالمواقف الصلبة، والحاجة إلى هذا شديدة اليوم لأن كثيرًا من المسلمين صار يعاني من ازدواجية بغيضة في أعماق شخصيته، فهو يعتقد أن الصواب في كذا وكذا، لكن تطلعاته وطموحاته ومساعيه تمضي في سياق مضاد! حين يتقاعس الناس عن المبادرة نحو أنواع من الخير، فإن المبادئ تستحث صاحبها على أن ينطلق ولو كان وحده، وحين يتدافع الناس في اتجاه الاستحواذ على شيء من متاع الدنيا، فإن المبادئ تدفع بصاحبها نحو الانشغال بشيء مختلف؛ فالمبادئ تلهم وترشد وتحفِّز، وتكبح... إنها فعلاً نظارة يرى المرء من ورائها الوجود، وقوة تحركه في تحقيق ما يراه!"[٣٥]

إن عملية المقارنة بين مرتكزات ما بعد الحداثة مع الحداثة نفسها ومقارنتها بالدين ترسم لنا عملية ناقدة لتلك المرتكزات ولعل الباحث يطبق ذلك من خلال النقاط التالية:

١. طبيعة الإنسان:

الحداثة:

تزعم الحداثة أن الإنسان آلة مادية، وتقول بأننا نعيش في عالم مادي (محسوس) بحت، ولا شيء وراء ما تدركه حواسنا، لذلك أصبح الإنسان في العالم الحديث يعمل كأنما هو آلة دون أن يكون هناك أدنى مراعاة لمشاعره وأحاسيسه وداخله الذي هو جزء مهم منه كإنسان.

ما بعد الحداثة:

(٣٥) الصلابة الداخلية، عبد الكريم بكار، مقالة منشورة في موقع الشيخ سلمان العودة، بتاريخ ١٤٢٨/٥/١٧هـ.

أما ما بعد الحداثة فتقول أن البشر "تروس" في آلات اجتماعية، فنحن في الأساس كائنات اجتماعية، تتأقلم مع بعضها لا ينبغي لها أن تجعل لها ضوابط وقيم تحكم حياتها وتدعو للانفلات على كل شيء.

الدين:

الإنسان روح، وعقل وجسد. خلقه الله لعبادته وكرمه على كثير ممن خلق وسخر له ما في الأرض، ووازن الدين بين كل هذه الثلاث الأجزاء كون إهمال أحدها يؤدي إلى رفع المعنى الحقيقي لكلمة إنسان عن الإنسان نفسه، بينما الاهتمام بالثلاثة أجزاء يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، وتغذيته لكلتا الثلاثة الأجزاء عبارة عن تقوية له ورقي به عن مواطن الدون، ولا يمكن له أن يوازن بينها حتى يكون له قيم ومبادئ وثوابت ينافح عنها ويدافع عنها. وحتى يميز بين تغذيته لجسده وتغذية غيره من المخلوقات لأجسادها، وحتى يكون له نظام يحكمه ووقت يضبط لها دينه.

٢. الاختيار:

الحداثة:

يرى الحداثيون أن الإنسان حاكم نفسه وهو حر في أن يختار ما يشاء، إذا أحسن التعامل مع القوانين الطبيعية التي تحكم الكون والإنسان، ويرون أنه لا يحق لأحد أن يختار للفرد ما لا يراه مناسباً له، وفي نفس الوقت يرون أن للمجتمع أحقية وضع إطار يحكم الأفراد بحيث لا يعتدي أحد على حرية أحد.

ما بعد الحداثة:

أما منظرو ما بعد الحداثة فيرون أن الإنسان نتاج بيئته وثقافته ومحكوم داخلهما، وهو فقط يتخيل أنه حاكم نفسه، بينما الحقيقة أنه محكوم في نظرهم، ويرون أنه لا يحق لأي أحدٍ أن يأطر للفرد

ما يمكن أن يحد من حريته، وأن عملية القوانين والأنظمة التي توفق بين حريات الأفراد إنما هي – في نظرهم– عملية عبودية جديدة يقوم عليها صانعو القوانين.

الدين:

الإنسان له مشيئة، وهو فيها لا يحرج عن مشيئة الله، فهو خالقه وخالق مشيئته، وللبيئة والثقافة أثر على الإنسان لكنه هو أيضا يؤثر فيها ويستطيع أن يرفض أثرها عليه، وإن لحريته الفردية إطار تحكمه هو إطار الدين الذي من خلاله يضمن لبقية الأفراد حرياتهم في إطارها المرسوم لها والتي لا تتعدى على حريات الآخرين بأي حال، لأن الخالق أعلم بالذي يصلح للمخلوق.

٣. العقل:

الحداثة:

العقل هو الإله، وعلى الإنسان أن يكون عقلانيا متفائلا ويعتمد على المعلومات التي تقدمها الحواس للعقل، وأما المشاعر فلا تعدو عندهم في إطار تحقيق الشهوات المغروسة في الإنسان، بينما الميتافيزيقيا وجوانبها بما فيها الروح لا يتعرفون بها البتة، إذ أن لها علاقة بالدين وهم قد خرجوا من إطار الدين بعد الثورة على الكنيسة، فكيف لهم أن يعترفوا بها مرة أخرى؟

ما بعد الحداثة:

ليس هناك عقلانية موضوعية لا يدخلها التحيز كما تزعم الحداثة، والعقل الموضوعي خرافة، وما يمكن الفصل بأي حال بين الباحث والمبحوث، إذ أن هناك ارتباط واضح بين كل المتعلقات بالباحث والمبحوث لا يمكن انفكاكها عن بعضها ولا يمكن للعقل أن يكون محايداً أثناء عملية البحث، وهذه النظرة تقود في النهاية إلى عملية الشك الذي لا يجدون وراءه حل واضح فيقبعون داخله كحل مريح بالنسبة لهم، ويحقق لهم جانب اللانظام والعبثية المقيتة التي ينادون بها.

الدين:

العقل نعمة من الله، وهو من أخص خصائص الإنسان. لكن لكل مجال وحدود لا يستطيع أن يعمل خارجها، إذ هو مخلوق فكيف يدرك ما لا يمكنه إدراكه من الغيبيات التي أمر بتصديقها بالوحي، ولم يكلفه الله بالبحث عن مكنوناتها ودقائقها، حيث أن له حدود مكنونة في خلقته التي خلقه الله بها، يعجز عن أن يعمل بأكثر منها، كما أن للحيوان عقل يميز به بين مأكولاته التي تصلح له والتي لا تصلح وآلية قضاء شهوته، بينما لا يدرك أكثر من ذلك.

٤. النظر إلى التطور (التقدم):

الحداثة:

يرى الحداثيون أن الإنسان يتقدم لاستعمال العقل والعلم، وأنه كلما أعمل عقله كلما اكتشف جديداً فهو يرتقي من حديث إلى أحدث، وما كان حديثاً بالأمس فهو في نظرهم اليوم قديماً وما سيكتشفه العقل غداً سيكون حديثاً والمكتشف اليوم سيصبح قديماً، وكل ذلك يتحقق بإعمال العقل في النظريات الحديثة التي توصل للعلم، والذي من خلاله نصل إلى معرفة أحدث، وتقدم جديد.

ما بعد الحداثة:

يرى ما بعد الحداثيون، أن "التطور" كلمة خادعة استخدمها الأوربيون لتبرير سيطرتهم على الثقافات الأخرى، وأن ما يحصل هو عملية خداع وهمي يقوم به البعض ليسيطر على الكل، وأنهم يستخدمون التطور بدلاً عن العبودية التي هرب منها الناس بعد الثورة على الكنيسة ليحققوا ما يرون أنه لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه وهو العيش في ظل سلطة حاكمه مهيمنة.

لذلك يرفض ما بعد الحداثيون هذا التطور جملة وتفصيلاً ويرون أن الإنسان له حق في أن يعيش عبثي بعيد كل البعد عن الأطر النظامية وأن التفكيكية هي الأصل عندهم في التعامل مع الإنسان.

الدين:

التقدم المادي التقني حاصل ولا ينكره أحد، وهو لا يعارض الدين ما دامت أهدافه نبيله ولا يضر البشرية، إلا أنه لا تلازم بين هذا النوع من التطور وتقدم البشرية الصحيح، فالبشر يتقدمون بمقدار اتباعهم لمنهج الله الذي شرعه للبشر.

بل جعل الله الإنسان مستخلفاً في هذه الأرض وأمره بعمارتها، والاستفادة منها في تحقيق الغاية العظمى التي خلقها الله من أجلها وهي العبودية، وكرمه بأن جعل له عقلاً يميزه عن غيره من المخلوقات، وجعل له من المنزلة ما يفوق به الملائكة إذا حقق العبودية والاستخلاف في الأرض بالصورة التي أمره الله بها، إذ أنه استطاع حينها أن يوازن بين جوانب الشهوة التي غرسها الله فيها وجوانب العبودية التي أمره الله به، كما هو فحوى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.[٣٦]

إن هذه النقاط الأربع في عملية نقد ما بعد الحداثة ترسم الإطار النقدي لها في ظل وجود نقاط أخرى لها أهميتها في عملية النقد كالتفكيكية والأنا والعبثية والطريق الموصلة إلى الشك، ونحوها من الخصائص التي تختص بها ما بعد الحداثة، وما كان إعراض الباحث عن التفصيل في نقدها إلا خشية التطويل في البحث.

(٣٦) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٤، ص٣٥٠-٣٩٢.

المبحث الرابع: ملامح النظام التربوي في فلسفة ما بعد الحداثة:

يرى الكثير من مفكري الغرب أن "ما بعد الحداثة" أحدث ضجة كبيرة في الأنظمة بكافة أطيافها السياسية والاقتصادية والمجتمعية وحتى في الترابط الأسري، وهو ما انجر على نظام العملية التربوية برمته، وأحدث شرخاً في الأنظمة التربوية الغربية فكيف يمكن أن يكون أثره على العملية التربوية في العالم العربي؟

إن النظر لأبرز ملامح "ما بعد الحداثة" مقارنة بالحداثة نفسها يصف لنا مقدار الهوة بينهما، فإن كانت الحداثة في شكلها متماسكة فإن ما بعدها اتسم بالتفكيكية، وإن كانت الحداثة اهتمت بوضوح الهدف فإن ما بعدها اتصف بالعبث، ولئن كانت الحداثة اتصفت بالنظام فإن ما بعدها انزلق في أعماق الفوضى، ولئن كانت الحداثة تهتم بالتجميع فإن ما بعدها أحدث تفريقاً مهولاً، وحتى في جانب الجنس فإن الحداثة تتسم بكونها تهتم بالتناسلية الذكرية إلا أن ما بعدها متعدد الأشكال فيه صفة الخنث، وأما في جانب الميتافيزيقيا فما بعد الحداثة سخرت جهدها في السخرية منه على عكس الحداثة، وهلم جرا.

و"بالرغم من النقد الكثير الذي وجهته التيارات ما بعد الحداثية للحداثة في مجال التعليم، إلا أنها لم تطرح فلسفة تربوية شاملة إلى الآن. فأثر ما بعد الحداثة على التعليم كبير وإن كان غير واضح المعالم...

وشككت "ما بعد الحداثة" في أن يكون العقل قادرا على الحكم الموضوعي. وإنما العقل يبني الحقيقة، ولا يكتشفها، كما تقول الحداثة، والعقل نفسه تبنيه الثقافة السائدة في المجتمع.

هذه النظرة إلى الحقيقة انعكست على النظر إلى المعرفة، فالمعرفة في المنظور المابعد حداثي تبنى في سياق ثقافي، ومهمة التدريس النقدي critical pedagogy هي أن تجعل الطلاب يتفحصون القيم والفرضيات والآيديولوجيات والمصالح المنعكسة في المعرفة، ليقوموا بإنتاج المعرفة بدلا من بقائهم مستقبلين غير ناقدين، وهذا يتم فيما يسميه التربوي النقدي بول فريري بتربية إثارة الأسئلة، مقابل ما أسماه تربية الإيداع banking education، التي تعتمد على ترحيل المعلومات.

النظرة ما بعد الحداثية أثرت على عناصر العملية التربوية كافة. المعلم، والمنهج، وطرق التدريس والطالب".(٣٧)

ومن هنا كان على الباحث أن يدقق النظر في ملامح النظام التربوي في فلسفة ما بعد الحداثة في أهم الجوانب التي تقوم عليها العملية التربوية، ومنها الأهداف والمعلم، والمتعلم وطرق التدريس، والمنهج، وكذلك القيم التربوية.

المطلب الأول: ملامح الأهداف في مرحلة ما بعد الحداثة:

لأن مرحلة ما بعد الحداثة تدعو للعبثة بحجة حماية الشعوب من السلطوية التي يريدها الحداثيون لهدف التنظيم، فإن –ما بعد الحداثة– أصبحت تنادي بالابتعاد عن الغايات العظمى التي يسمونها بأنها عبارة عن نظريات ضبط فيها نوع من العبودية التي هربوا منها إبان الحرب على الكنيسة.

(٣٧) أثر ما بعد الحداثة في التعليم، مرجع سابق، ص١١.

لذلك لا يرون أي أهمية لوجود أهداف ترتبط بالغايات العظمى وإنما الأصل عندهم الأهداف التي يسميها بعض التربويون الأهداف الإجرائية أو التشغيلية أو نحو ذلك، والسبب في ذلك هو عملية إتاحة أكبر قدر ممكن من الحرية للفرد، ويرون أنه من خلال تشكل مجموعة الأهداف التي يسعى لها الأفراد فإنه يتم تشكيل الرؤية الكاملة للمجتمع!

لذا فإن "أهداف التربية في مجتمع ما بعد الحداثة تتمثل كما حددها المفكر الفرنسي فرانسوا ليوتار في كتابه الوضع ما بعد الحداثي بأن هدف التعليم –باعتباره منظومة فرعية في المنظومة المجتمعية– هو خلق المهارات التي لا غنى عنها لتلك المنظومة، وهذه المهارات على نوعين: مهارات النوع الاول وتتمثل في المهارات التي تستهدف بشكل نوعى التعامل مع المنافسة العالمية، وتتنوع حسب التخصصات التي تستطيع الدولة أو المؤسسات التعليمية الكبرى بيعها في السوق العالمية، ومن المرجح أن ينال الأولوية في التعليم الذى يتواجد في تخصصات يطلق عليها التليماطيقا ويشرحها علماء الحاسوب والسيبرناطيقا، وعلماء اللغة والرياضيات والمنطق، أما مهارات النوع الثاني فتتعلق بالمهارات التي تلبي احتياجات المجتمع نفسه، ولن يكون ذلك بربط التعليم بمثل عليا وغايات إنسانية، بل ستكون أهداف التعليم وظيفية نفعية عملية، من خلال السعي إلى إمداد النظام الاقتصادي بلاعبين قادرين على القيام بأدوارهم بشكل مقبول في مواقع العمل بالمؤسسات.

وفي ضوء تلك الأهداف سوف تتحول الجامعة – بالإضافة إلى وظيفتها المهنية– إلى لعب دور جديد هو دور التأهيل والتعليم المستمر، ولن يتعلم الطلاب المعرفة أو التخصص مرة واحدة وإلى الأمد خلال إعدادهم المهني الجامعي، بل ستقدم لهم حسب الحاجة بغرض تحسين مهاراتهم

وفرص ترقيتهم، وكذلك مساعدتهم على اكتساب المعلومات واللقاءات التي تتيح لهم تهذيب خبرتهم التقنية والاخلاقية".[٣٨]

وهذا ما لا يتأتى في فلسفة الحداثة نفسها، بل ما لا يمكن للدول التي تحكمها القيم والمبادئ السماوية كالبلاد الإسلامية أن لا يكن في أعلى سلم العملية التربوية الغايات الكبرى التي تنطلق منها العملية التربوية بل وتوجهها وتحافظ على سيرها وبناء المجتمع التعليمي داخلها.

بل إن الغايات الكبرى لها أثرها الكبير في كل جزء من جزئيات العملية التربوية بداية من الأهداف حتى أقل جزئية داخل العملية التربوية ومؤسساتها بما في ذلك المباني وتشكيل المجتمعات الطلابية ونحوها.

المطلب الثاني: ملامح العملية التعليمية في مرحلة ما بعد الحداثة:

١. بالنسبة للمعلم:

لأن ما بعد الحداثة تنطلق من أنه لا يوجد حقائق وثوابت فإنها تحد من دور المعلم في العملية التعليمية وتحصر كل أدواره في عملية التوجيه للوصول إلى القناعات التي يمكن للطالب أن يصل إليها دون عملية الإملاء من المعلم نفسه.

لذلك "لم تبلور حركة ما بعد الحداثة – بحكم طبيعتها – موقفاً واحداً من المعلم، ومن ثم تعددت صور المعلم فيها، ولكن يمكن القول بأن هناك ثلاثة مواقف رئيسة لحركة ما بعد الحداثة تتراوح بين الراديكالية التي يمثلها ليوتار والتي ينفي فيها دور المعلم بحيث يرى أن شرط ما بعد الحداثة يعني موت المعلم Death of the professor بمعنى

(٣٨) ما بعد الحداثة والتربية، جمال الدهشان، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العلمي الاول لقسم أصول التربية "التربية فى مجتمع ما بعد الحداثة" كلية التربية، جامعة بنها، الفترة من ٢١-٢٢يوليو ٢٠١٠

تراجع سلطته المعرفية- وبين الوسطية التي يمثلها رورتي الذي يرى أن شرط ما بعد الحداثة يضفي أهمية خاصة على دور المعلم، والموقف النقدي الذي يمثله هابرماس والذي يعلي من أهمية المعلم.

كما ترى حركة ما بعد الحداثة أن مهمة المعلم ليست . بل وليس من حقه . أن يقوم بنقل الحقائق كما يراها هو إلى ذهن الطالب، بل يساعده في بناء حقائقه الخاصة التي يشكلها مجتمعه وثقافته، وذلك من خلال:

أ- مساعدة طلابه على إدراك أنهم إضاءات في مجتمعات معرفية متعددة وذلك من خلال تعميق وعيهم الذاتي بثقافاتهم وثقافات الآخرين.

ب- مساعدة الطلاب على اكتشاف معتقداتهم وآرائهم وآراء الاخرين من زملائهم والوقوف على الكيفية التي يتم بها تبرير، وإبداء آرائهم حول ما يمر بهم من أحداث.

ت- مساعدة الطلاب على استكشاف طبيعة المعرفة من الناحيتين التاريخية والاجتماعية اللغوية.

ث- أن يشيع بين طلابه فضيلة الاعتراف بنقص معارفنا أو جهلنا، ففي ظل ثورة المعلومات لا يستطيع أحداً أن يدعي أنه يملك الحقيقة، وأننا بقد ما نعرف بقدر ما نجهل، وأن ما نعرفه الآن هو ثابت ثبوتاً نسبياً مؤقتاً وهو قابل للتغير.

ولعل قيام المعلم بتلك الأدوار والمهام يتطلب ضرورة توافر مجموعة من المطالب في برامج إعداده وتنميته مهنياً وتتمثل تلك المطالب فيما يلى:

أ- تنمية القدرة على التصرف في المواقف المختلفة، وذلك من خلال مناهج دراسية وأطر تربوية تجعل من المتعلم مركز اهتمامها، وتنظر إليه باعتباره غاية، من

خلال ما يسمى بالتعليم الليبرالي الذى يهدف إلى جعل الإنسان إنسان قبل أي شيء آخر.

ب- تنمية مهارات التفكير الناقد، من خلال مساعدة الطلاب وتدريبهم على استخدام مهارات البحث العلمي في دراسة ومناقشة المشكلات التي تصادف المعلمين. وتدريبهم على تدبر بعض الممارسات التي يقوم بها بعض المعلمين، وتوضيح وجهة نظرهم فيها، كما يمكن أن يتم ذلك من خلال تنمية مهارات التركيز وجمع البيانات والتنظيم والتحليل والانتاج والتكامل والتقويم اثناء عرض المحتوى الدراسي.

ت- تنمية إطار مقبول من المهارات تمكنه من التعامل والعيش مع الاخرين باعتباره إنسان كوكبي عالمي وليس مواطن يعيش في مجتمع محلى، من خلال تدريبه من خلال التعلم عن بعد، على الاستفادة من إمكانات شبكة المعلومات الدولية في التعرف على كل ما يحدث في العالم من حوله.

ث- أن تشتمل تلك البرامج على أنشطة ومقررات تتعلق باستراتيجيات تدعيم عمليات ما وراء المعرفة (التفكير في التفكير)، والتفكير التأملي، والدراسات المستقبلية، والمدخل للمنظومة، وأن تتم دراسة المفاهيم أو الموضوعات التي تتضمنه تلك المقررات من خلال منظومة متكاملة تتضح فيها كافة العلاقات بين أي مفهوم أو موضوع وغيره من المفاهيم والموضوعات الأخرى".[٣٩]

(٣٩) ما بعد الحداثة والتربية، مرجع سابق. ص١٦.

٢. بالنسبة للمتعلم :

لأن ما بعد الحداثة تنطلق من قضية عدم التقيد بنظام معين حتى في العقل، فإنه يجعل للمعلم الحرية في البحث ولا يعترف له بالموضوعية التي جاءت بها الحداثة هروباً مما كان في الكنيسة من المبادئ والقيم التي يتم الانطلاق منها.

فكان الهروب من الموضوعية يتناسب مع ما بعد الحداثة كونها ردة فعل للحداثة نفسها، لذا يرون أن للمتعلم أن يقوم ببناء آليات التعلم الخاصة به، ويكتسب كل معارفه بنفسه من واقعه دون أن يتأثر بأحد.

و عليه فإن تيار ما بعد الحداثة "يؤكد على أن المتعلم يجب أن يتعلم أن لا يعتمد على الموضوعية التي تزعمها الحداثة، وأن الإنسان يبني كل المعارف داخل ذهنه، وليس هناك شيء منفصل عن المتعلم، فالتعلم يحدث عندما يقوم المتعلم ببناء آليات التعلم الخاصة به بالإضافة إلى نسخته الخاصة من المعارف، متأثراً في ذلك بخبراته ومهاراته وخلفيته الاجتماعية، وهو ما يتطلب ضرورة أن تتغير طبيعة العلاقة بين الطالب والمعلم، فلم يعد ينظر للمعلم على أنه الخبير الذي يزود الطالب بالمعلومات، صار هناك تركيز على التفاعل الفردي بين الطالب و"المعلم" والاستكشاف المشترك".[٤٠] وذلك بطريقة وضع المتعلم أمام مشكلة وعرض بعض الأسئلة عليه ليعمل ذهنه ويصل إلى نتيجة دون أن يكون للمعلم دور في عملية التلقين.

(٤٠) أثر ما بعد الحداث في التعليم، مرجع سابق، ص١٢.

"كذلك يرى تيار ما بعد الحداثة أن المتعلم يقوم ببناء المعرفة داخل ذهنه، وهذا البناء يتم في سياق اجتماعي ليس له صفة الإطلاق، فالمتعلم يبني بنفسه فهمه الخاص عن العالم من حوله بدلاً من أخذ هذا الفهم عن الآخرين".[٤١]

٣. بالنسبة للمنهج :

لأن ما بعد الحداثة تسعى للحرية المطلقة فإن منظروها في جانب المنهج يرون أن الطريقة عكسية بمعنى أن للطالب الدور الأكبر في اختيار المنهج الذي يتناسب مع طريقته وتفكيره وليس لأحد أن يفرض عليه منهجاً معيناً، و"ترى حركة ما بعد الحداثة أن المنهج يجب يتكيف مع الطلاب، بحيث يتناسب المحتوى والمهارات مع الطلاب وحاجاتهم، فهدف المنهج أن يكون تحويليا Transformative، بحيث يمكن الطالب أن يتفحص ويدرك العالم من حوله أولاً ثم يفهم نفسه بشكل أكبر، ولذا فالأنشطة التعليمية ليست مخططا لها مسبقا، إنما تتقرر بناء على رغبات الطلاب وعلى الطرائق التي يتم بها الفهم في أذهان الطلاب.

فالمنهج من وجهة نظر ما بعد الحداثة يجب أن يهتم بالطريقة التي يبني بها الطلاب المعرفة من منظورات مختلفة، بأساليب تعلمية متنوعة وذكاءات متعددة، لا تعتمد فقط على الذكاء التقليدي الرياضي المنطقي، كما يجب أن يبتعد عن النظرة الحداثية للمنهج التي تنحو المنحى التراكمي في تقديم المحتوى، إلى المنهج التحويلي، الذي يسعى لإحداث تحويل في فهم الطالب لما حوله ومن ثم فهمه لنفسه، فيجب أن لا يحتوي المنهج على

(٤١) ما بعد الحداثة والتربية، مرجع سابق، ص١٨.

حقائق يراد نقلها إلى الطالب، ولا بد أن يحتوي على القليل من التجريد والتنظير، وبدلا من ذلك يركز على الاهتمامات الفردية للطلاب وعلى التطبيقات العملية.[٤٢]

ولأن تيار ما بعد الحداثة يقبل التعددية ولا يرى محاربة الأديان ويرى أنها عبارة عن ثقافات نشأت في بيئات مختلفة من حقها أن تعيش حريتها كما نشأت فيها دون أن تتجاوز التعدي على حريات الأفراد؛ فإنه حينئذ يقبل بالغيبيات ليس على أنها حقائق بل على أنها ثقافة لا يحق لأحد محوها من المجتمع الذي نشأت فيه.

"إن المنهج الدراسي يجب ألا يرفض الغيبيات أو يقلل من قيمتها كما تفعل الحداثة، بل يعترف بها وربما يشجعها، لكن ليس على أنها حق، أو حقائق مطلقة، بل على أنها ثقافة شكلتها منظومة اجتماعية خاصة، ويجب أن لا تتعدى إطار تلك المنظومة، فالمنهج عليه أن يؤصل في أذهان الطلاب أنه ليس هناك حقائق خارج الذهن، وأن الحقائق تبنى عن طريق اللغة وداخل الثقافة. ولذا فليس هناك حقائق مطلقة، بل هي حقائق نسبية".[٤٣]

٤. طرق التدريس:

هروب منظرو تيار ما بعد الحداثة من النظام وتمسكهم بالفوضى خشية العودة لسلطة الكنيسة مرة أخرى جعلهم لا يتمسكون بأي منهج واضح في العملية التعليمية التربوية، لذلك "لا تمدنا أدبيات ما بعد الحداثة بأمثلة محددة يمكن أن تكون مكونات لنظرية تدريس متماسكة، تربط بين النظرية والتطبيق، بل يرى بعض الباحثين أن التدريس من المنظور ما بعد الحداثي يحتاج إلى اعتقاد بأن التعلم يحدث في وسط ما يشبه الفوضى أو اللانظام chaos، حيث يحتاج المعلم أن يتصور وينظم أوضاع التعلم على شكل تيار

(٤٢) المرجع سابق، ص٢٠.

(٤٣) ما بعد الحداثة والتربية، مرجع سابق، ص٢٠.

غير منتظم وغير مؤقت من الاكتشافات والتناقضات وإعادة الاكتشاف والمساءلة، ويعزو بعض الباحثين ذلك إلى أن ما بعد الحداثة لا تركز كثيرا على إيجاد الحلول بقدر ما تركز على البحث عن التعقيد والاحتمالات الحاضرة في المشكلة، فالإرباك وإيجاد عدم سكون وتنظيم الذات هي خصائص طرق التدريس ما بعد الحداثة، إذ وجود قدر كاف من الاختلال وعدم السكون يقود إلى تغيير نظام القناعات والمسلمات.

كما يرى بعض الباحثين أن بحوث المنهج من وجهة نظر ما بعد الحداثة ليس لها تطبيقات مباشرة في المواد الدراسية أو الممارسات المدرسية، ويعلل هذا بأن ما بعد الحداثة تساهم، بدلا من ذلك، في إصلاح المدرسة بإعادة تصور وفهم القضية من أساسها وتمكين التربويين من تحدي القناعات والمسلمات واستشراف الإمكانات البديلة للتغيير، والتطبيقات الصفية المباشرة تظهر من خلال السياقات الخاصة، بدلا من فرض مبادئ عامة.(٤٤)

"فالتصور ما بعد الحداثي للتعلم مبني على الاعتقاد بأن كل فرد يصنع المعنى من مصادر مختلفة، بدلا من استقبالها جاهزة من خبير، ولذلك فهناك تركيز تام في طرق التدريس على الحوار والاستكشاف، مع التقليل من دور المعلم بوصفه مصدرا للمعلومات. وبينما انتهجت بعض الاتجاهات التي لا تنتمي إلى تيار ما بعد الحداثة منهج الاسكتشاف، فإن ما بعد الحداثة تنتهج هذا الأسلوب لا على أنه سبيل لاكتشاف الحقيقة بل على أنه جواب مؤقت إلى حين يتم اكتشاف غيره".(٤٥)

(٤٤) المرجع السابق، ص٢١.

(٤٥) أثر ما بعد الحداثة في التعليم، مرجع سابق، ص١٥.

المطلب الثالث: ملامح القيم التربوية في مرحلة ما بعد الحداثة:

لا تحارب ما بعد الحداثة الأديان أياً كانت بل تقبل بالتعدية وترى أنه لا حق لأي أحد أن يفرض ما يراه صواباً في دينه على الآخرين الذين لهم دينهم الخاص بهم، وكل ذلك منطلق من أنه لا يوجد حقائق ثابتة ولا أحد يمتلك الحقيقة.

"وبناء على ذلك، فالأخلاق والقيم أيضا نسبية، وما يعتبر خلقاً فاضلاً في ثقافة قد يكون ظلما في ثقافة أخرى، والعكس صحيح أيضاً، فما بعد الحداثة تسوغ الشذوذ الجنسي –مثلاً– وترى أنه يجب أن يحترم رأي أصحابه. وترى أن النظر إليه على أنه خطيئة أو شذوذ، إنما هو من صنع الثقافات الجائرة التي تريد أن تفرض "حقائقها" على أنها حقائق مطلقة.

ولا يفتأ ما بعد الحداثيين أن يؤكدوا على أن منظومة القيم التي يراد، بناءً على المنهج الحداثي فرضها، إنما هي من إفرازات للعلاقة بين العلم والسلطة، وأن السلطة هي التي توجه العلم وتجعله مؤدلجاً، وتستغله لفرض رأي الأغلبية".[٤٦]

لذلك يرى ما بعد الحداثيون أن عملية القيم ليست مهمة لأن كل أصحاب ثقافة معينة يحاولون أن يجعلون من قيمهم فرضاً على الثقافات الأخرى ولأن عملية القيم عندهم نسبية

(٤٦) القيم في مرحلة ما بعد الحداثة. مصدر سابق، ص٤-٥.

ليست ثابتة، إذ لا يمكن بحال لأي أصحاب ثقافة أن يفرضوا قيمهم لأنها من باب الحق المطلق عندهم.

بل إن كل قيمة يأخذها أصحابها من ثقافتهم التي يسبغون عليها الحق المطلق يرفضها الما بعد حداثيون رفضاً قاطعاً ويرون أن المسألة ستدخلهم لبوابة السلطوية مرة أخرى كما كانت في عصر الكنيسة المقدسة.

لذا "يرى "نيتشه" أنه لا قيمة للقيم، وأن ما تكون في العصور السالفة من مبادئ راسخة ثابتة ومثلا علياً سامية صارت مع مجيء الحداثة عدماً أفقد القيم كل معنى أو حقيقة، فهو ينكر الأحكام التعميمية على نطاق المجتمع ويدعو إلى هجر مصطلحات الحقيقة باعتبار أنه لا يمكن الإمساك بتلابيبها في أي مجال وكذلك ترك مصطلح الموضوعية لأن الذاتية هي التي تحكم مختلف المسارات ، كما يفقد التاريخ في ضوء هذا الاتجاه شرعيته لأنه غالباً ليس إلا مجموعة من الكتابات الدعائية وهذا الاتجاه العدمي يدعو إلى الجزئي على حساب الكلي.

لذلك تسعى ما بعد الحداثة للترويج للنسبية الأخلاقية والقيمية، فلا وجود لنظرية مطلقة في مجال الأخلاق والقيم، بمعنى العدمية أو انعدام قيمة القيم في ظل الحداثة ومنجزاتها ونقد الذات وإنكار الحقيقة والموضوعية والتاريخ، والاعتراف بالمذهب النسبي (Relatirism)، ويمثل هذا المبدأ المنطق الداخلي لتيار ما بعد الحداثة، فهي تسعى لتحطيم الأنساق الفكرية الكبرى المغلقة،

والتي عادة ما تأخذ شكل الايديولوجيات، على أساس أنها في زعمها تقدماً تفسيراً كلياً للظواهر، وأنها ألغت حقيقة التنوع الإنساني وانطلقت من حتمية وهمية لا أساس لها، فلا توجد حقائق أو أفكار سامية أو متعالية، بل إن الوصول إلى حقيقة عالمية ثابتة ضرب من المستحيل".[٤٧]

وكل هذا يحقق للما بعد حداثيين الهروب الكبير من عملية النظام والأهداف وإعمال العقل إلى عملية الفوضوية واللانظام واللا أهداف لتبقى الآلة التفكيكية تعمل عملها في كل ما هو حديث يمكن أن يرتقي بالإنسان من حيوانيته إلى درجة أعلى مما هو عليه الآن، وهو ما يزال يكتشفه العالم الغربي اليوم يوماً بعد يوم، حيث أن اختلاط المسلمين بهم أدى إلى تأمل في حياتهم الاجتماعية والقيمية والمبادئ التي يحملونها، وما إلى ذلك فجعل عند العقلاء منهم إعادة حساب لما بعد الحداثة بل وللحداثة من أصلها، واستمر هذا في كل الجوانب حتى وصل الحال بهم لاستعارة النظام الاقتصادي في بعض الدول الأوربية لتفادي الأزمة الاقتصادية التي حلت بهم.

ولو أنهم التفتوا في دراساتهم النفسية والاجتماعية إلى الإسلام كما التفتوا إليه في موضوع الاقتصاد لوجدوا أن فيه ما يمكن أن يستغنوا به عن الكثير من دراساتهم عن الإنسان والمجتمع ككل، وكيف أن في الإسلام ما لا يتعارض مع كل معطيات الحضارة والتقدم والنمو، ويحقق

(٤٧) القيم في مرحلة ما بعد الحداثة. مصدر سابق، ص٥-٦.

للإنسان معنى عمارة الأرض والاستخلاف فيها، وإحيائها بالصورة التي تحقق كافة القيم التي تدعوا إليها الأنظمة الأروبية الديمقرطية وزيادة.

النتائج والتوصيات:

- لأن تيار ما بعد الحداثة يرفض التأطير والقولبة والعودة للتسلطية كما يرى فإنه يصعب حصره في تعريف جامع مانع.
- يجب الحذر من مفهوم التفكيكية الذي لا يأبه بأي شيء خاصة وأن الأجيال الجديدة تحتاج إلى مزيد من فهم وإدراك ثوابت دينها.
- إن مفهوم ما بعد الحداثة لم يصل تأثيره إلى البلاد العربية كما وصل مفهوم الحداثة ذاتها، إلا في الآونة الأخيرة.
- أن ما بعد الحداثة تيار رافض لكل ما هو منظم ويحمل قيماً ومبادئ واضحة معلومة.
- وضوح الهوة الكبيرة التي اجترها تيار ما بعد الحداثة في الانسلاخ التام من معاني البشرية في جانب الجنس.
- دمج المجتمعات بلا أي ضوابط كانت أبرز معالم تيار ما بعد الحداثة.
- ما بعد الحداثة يقول بالتعددية، لا لأنه تيار متسامح، بل لأنه وقف بالضد من الحداثة التي رفضت الأديان وآمنت بالدنيوية.
- انفلات ما بعد الحداثة بلا نظام ولا مبادئ ولا ثوابت واضحة يجعل العملية التربوية بلا هدف.
- محاربة ما بعد الحداثة لـ الانظام، جعل المعلم بين طلابه بلا سلطة أو مكانة.
- لأن تيار ما بعد الحداثة يقف في موقف اللاوثوقية فإنه يترك طرق التدريس جانباً ولا يوليها أي اهتمام.
- لا يرسم تيار ما بعد الحداثة في العملية التعليمية منهجاً واضحاً لأنه لا يرى بالنظام والثبات، بل يؤمن بالعبثية واللا أهداف.

المراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. ابن تيمية، أحمد بن عبدالسلام بن عبدالحليم الحراني، (٢٠٠٨): ***مجموع الفتاوى***. ج٤. المحقق: عامر الجزار – أنور الباز، دار الوفاء: جدة.

٣. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري ابن منظور، (د.ت): ***لسان العرب***، مادة حدث: ج٢، دار صادر — بيروت.

٤. البازعي، سعد، والرويلي، ميجان (٢٠٠٠): ***دليل الناقد الأدبي***، المركز الثقافي العربي، ط٢، بيروت: لبنان.

٥. البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٣٢): ***المسند الجامع الصحيح (صحيح البخاري)***، ط١، دار الرسالة العالمية: دمشق.

٦. براديري، مالكم، ماكفارلن، جميس (١٩٨٧): ***الحداثة***، ترجمة، مؤيد حسن فوزي، دار المأمون: بغداد.

٧. البعلبكي، منير (١٩٩٣): ***قاموس المورد***، دار العلم للملايين: بيروت.

٨. بكار، عبد الكريم (١٤٢٨هـ) ***الصلابة الداخلية***، مقالة منشورة في موقع الشيخ سلمان العودة، بتاريخ ١٤٢٨/٥/١٧هـ.

٩. بوشلاكة، رفيق عبدالسلام (١٩٩٦): ***مأزق الحداثة– الخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة***. مجلة إسلامية المعرفة، العدد السادس، ص١١٣.

١٠. جارودي، روجيه (١٩٨٣م): ***نظرات حول الإنسان***، ترجمة يحيى هويدي. المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة.

١١. الدهشان، جمال (٢٠١٠): ***ما بعد الحداثة والتربية،*** ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العلمي الاول لقسم أصول التربية "التربية فى مجتمع ما بعد الحداثة" كلية التربية، جامعة بنها، الفترة من ٢١-٢٢يوليو ٢٠١٠.

١٢. روز، مارجريت (١٩٩٤): ***ما بعد الحداثة***، ترجمة أحمد الشامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: مصر.

١٣. شلبي، محمود (د.ت): ***التأصيل والحداثة في الشعر العربي***، دار الرمل: بيروت.

١٤. الشيخ، محمد، والطائري، ياسر (١٩٩٦): ***مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة.*** دار الطليعة: بيروت.

١٥. عبدالسلام، بوزبرة (٢٠٠٩): ***موقف طه عبدالرحمن من الحداثة***، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسطنطينة: الجزائر.

١٦. العبدالكريم، راشد بن حسين (١٤٢٤): ***أثر ما بعد الحداثة في التعليم***، ورقة مقدمة للقاء الجمعية السعودية للعلوم التربوي والنفسية (جستن): الرياض.

١٧. العمري، عبيد الله، والعرابي عبد القادر (١٤٢٢هـ): ***إشكالية المنهج في العلوم الاجتماعية العربية المعاصرة.*** كتاب الرياض: الرياض.

١٨. الغزالي، صفا أحمد (٢٠١٠): ***درجة فهم وممارسة مفهوم الحداثة في العملية التعليمية لدى معلمي المرحلة الثانوية في محافظة عمَّان***، مجلة العلوم التربوية، المجلد ٣٧، عدد٢.

١٩. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٤٢٤): ***كتاب العين***، مادة حدث، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية: القاهرة.

٢٠. القحطاني، مسفر بن علي (د.ت) ***القيم في مرحلة ما بعد الحداثة. قيم العمل اليابانية إنموذجاً***، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن: الظهران.

٢١. مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (١٤٢٧): ***صحيح مسلم***، دار طيبة: الرياض.

٢٢. مصطفى، بدر الدين (٢٠١٣): ***حالة ما بعد الحداثة الفلسفة والفن***. دار المسيرة: الأردن.

٢٣. مصطفى، إبراهيم، والزيات، أحمد، وعبد القادر، حامد، والنجار، محمد (٢٠٠٤): ***المعجم الوسيط***، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ج١، مكتبة الشروق الدولية: مصر.

٢٤. مهدي، سامي (١٩٨٨): ***أفق الحداثة وحداثة النمط–دراسة في حداثة مجلة شعر بيئة ومشروعاً ونموذجاً***. دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد.

٢٥. يفوت، سالم (١٩٩٩): ***المناحي الجديدة للفكر الفلسفي***. دار الطليقة: بيروت.